2 | الدور المصري في أحداث غزة وتداعياته ومستقبله

أثار الدور المصرى جدلاً واسعاً فى العالم العربى وخارجه وتتراوح تفسيره بين متواطئ وضحية البراءة وحسن النية فى التعامل مع إسرائيل، وفى كل الأحوال فإن هذا الدور حاسم لاشك فى إنقاذ الموقف أو تركه يتدهور. فمن المعلوم أن مصر قد فقدت تأثيرها لدى إسرائيل وفى المنطقة بفقدان دورها الإقليمى منذ أن قررت أن تتولى إلى الظل بحجة أنها قد أرهقت من المواجهة مع إسرائيل وأنها قدمت ما يكفى من التضحيات للقضية الفلسطينية بينما اكتفى العالم العربى ببعض المساندة المالية أو الشماتة فى بعض الأحيان فيما لقيت مصر من عثرات.

من المعلوم أيضاً أن معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩ قد عقدت تتويجاً لتجنيد أمريكى وصهيونى لتحقيق هذا الهدف وهو عزل مصر عن محيطها العربى تحت عنوان السلام الذى تقوده مصر بصرف النظر عما يردده البعض من أن السادات كان يريد سلام شامل لكل العالم العربى وللفلسطينيين ولكن العالم العربى وللفلسطينيين خذلوه وأصبح سيداً بعد زيارته للقدس ولم يعد يمثل إلا نفسه فى الحسابات الإسرائيلية مما دفع إسرائيل إلى التعامل معه بشكل منفرد بل إن شامير رئيس وزير إسرائيل قد أكد حقيقة أخرى فى نفس السياق خلال مؤتمر مدريد يومى ٣٠ و ٣١ أكتوبر ١٩٩١ وهى أن إسرائيل تعتبر سيناء التى ردتها معطوبة قانونياً ومعرضة للاستيلاب النهائى من مصر مرة أخرى هى كل ما لدى

إسرائيل من أراضى عربية واستحالة رد شبر واحد من فلسطين بل العكس المطلوب هو إخلاء كل فلسطين من سكانها «المغتصبين»، وقال شامير صراحة أن الجشع العربى دفع العرب إلى ظلم إسرائيل بالمطالبة بأراضى محتلة وهم يملكون ١٤,٥ مليون كم بينما لا تزيد مساحة كل فلسطين على ٣٠٠٠٠كم أى أقل من نصف مساحة سيناء. هكذا خرجت مصر من السباق بحجة أنها أنهكت وأن ما تنفقه على المواجهة مع إسرائيل يوفر عليها ما يلزم للتنمية والازدهار كما يقيها ذل السؤال من عالم عربى لا يقدر تضحيات مصر!.

أما عن الجانب الآخر فقد زالت العقبة الكبرى التى كانت تحمل المشروع العربى رغم انكساره وتعثره منذ عام ١٩٦٧ فى مواجهة المشروع الصهيونى الذى يتحدى المشروع العربى فى ركنين أساسين : الركن الأول : هو التهام جزء استراتيجى من الجسد العربى ثم أعطاب الجهاز المناعى للجسد العربى كله وصولاً إلى تبديد حلم الوحدة العربية الشاملة ولذلك استمر المشروع الصهيونى فى مسيرته واعتبر زعماء إسرائيل بما فيهم أولمرت أن معاهدة السلام لا تقل أهمية عن قرار التقسيم وإنشاء دولة إسرائيل لأنه لا عبرة لاستمرار دولة فى محيط عربى تقوده مصر حرمها من التواصل مع العالم الخارجى ومنح الشرعية لوجودها فى البيت العربى. بل الأدهى من ذلك أن مصر مبارك فقدت الإرادة السياسية الكاملة تجاه إسرائيل ليس فقط فى مواجهاتها ولكن الأخطر أن هذه الإرادة انعدمت فى الشعور بإهانات إسرائيلية وافتراءاتها المتكرر على مصر ومصالحها وسيادتها.

ولذلك فإن العلاقات المصرية الإسرائيلية قد دخلت فى نفق مظلم جعل مصر فى مركز التابع ودفعها إلى أدوار لخدمة المشروع الصهيونى لا يليق بحجمها وتاريخها وما حباها الله من مكانة وموقع فى التاريخ والجغرافيا والسياسة والحضارة، وهو

وضع يشبه مع بعض الفوارق موقع صدام حسين فى العراق مع الفارق الكبير بين وزير مصر فى كل المنطقة العربية ووزن العراق والذى تم تحجيمه فى معظم الأوقات.

يدخل فى هذا السياق تلك الصفقات المشبوهة التى أبرمتها الحكومة المصرية مع إسرائيل مثل اتفاق تصدير الغاز المصرى لإسرائيل واتفاق الكويز وغيرهما وما ارتبط بصفقة الغاز من فضائح أشارت صراحة إلى ذلك اللغز فى علاقة مصر مبارك بإسرائيل وفسر البعض ذلك تفسيراً لايشفى الغليل يذهب إلى أن استغراق مبارك فى توريث نجله قد دفعه إلى التعامى عن المصالح الوطنية الظاهرة وعن النقد العنيف الذى يوجه له من كل صوب وربط البعض بين هذا اللين النادر نحو إسرائيل وتجاوزاتها فى حوادث مشهورة مثل قتل بعض الجنود المصريين فى رفح بمدافع الدبابات الإسرائيلية وتأكيد شارون عام ٢٠٠٥ بأن القتلى إرهابيون يهربون السلاح إلى المقاومة الفلسطينية وكذلك تصريح الرئيس مبارك للإعلام المصرى والإسرائيلى بأن وزيرة الخارجية ليفنى قد تجاوزت جميع الخطوط معه ولكنه حريص شخصياً على العلاقات مع إسرائيل وما تبع ذلك من تصريحات من وزير الخارجية المصرى الذى تعمق هذا الخط وبلغ الأمر وضع وزير الخارجية المصرى على القائمة السوداء فى إسرائيل رغم أنه يحاول فى كل مناسبة أن يظهر جدارته برضى إسرائيل، وهذا هو مدخلنا إلى تحليل الدور المصرى.

طبيعة الدور المصرى وخصائصه :

هناك نظريات ثلاث:

النظرية الأولى : ترى أن مصر لعبت دوراً تتسم بالتآمر لصالح إسرائيل والدلائل على ذلك كما تسوقها هذه النظرية كثيرة أهمها أن مصر الرسمية التى تختلف اختلافاً

مطلقاً عن مصر الشعبية قد ارتبط ارتباطاً مصلحياً يرتبط من الارتباط الشخصى بإسرائيل لدرجة أن أولمرت خلال الأزمة التى أثارتها ليفنى مع الرئيس ووزير الخارجية فى مصر قال بالحرف : لقد من الله علينا فى إسرائيل بوجود مبارك ولا ندرى ماذا كان حالنا لو لم يكن الرئيس مبارك رئيساً لمصر ولذلك نتمنى له طول العمر ونشعر بالقلق عند الحديث عن مصر ما بعد مبارك.

يسوق أنصار هذه النظرية دليلاً آخر إلى جانب التسامح التام من جانب مبارك فيما تقترفه إسرائيل من آثام وما تستخلصه من مصالح خصوصاً الغاز الذى يضيع على مصر يومياً ٥٥ مليون جنيه وهو ما يعكس حجم العلاقة بين الرئيس وإسرائيل، حجة أخرى وهى أن الرئيس يخشى من الإخوان المسلمين على عملية التوريث بسهولة ويعتقد أن حماس امتداد للإخوان.

يرتبط بهذه الحجة حجة ثالثة وهى أن حماس منظمة إسلامية وأن نجاحها فى السلطة أولاً حيث فشلت التجربة منذ بدئها فى ٢٧ يناير ٢٠٠٦، ثم فى غزة بانفراد حماس بحكمها منذ ١٥ يونيو ٢٠٠٧ سوف يشجع على تولى التيار الإسلامى الحكم فى معظم الدول العربية وفى ذلك انتزاع للحكم من يده وخليفته، وتجسيد للعداء الإسرائيلى والولايات المتحدة مما خلق مصلحة مشتركة بينه مع غيره من بعض الحكام وبين إسرائيل والولايات المتحدة على ضرب تجربة حماس. وهذا هو السبب فى نظر هذا الفريق فى الانحياز الكامل لأبو مازن ومنهجه.

بل إن هذا الفريق يؤكد أيضاً فى حجة رابعة أن الصراع فى المنطقة هو صراع بين مشروع المقاومة ومشروع الاستسلام للهيمنة الإسرائيلية الأمريكية ومصر تقود المشروع الثانى الذى يسمى بمعسكر الاعتدال ومن الطبيعى أن تساعد مصر إسرائيل على التصدى لحماس باعتبارها جزء من معسكر المقاومة مثلما ساعدت

التصريحات المصرية إسرائيل وذلك باعتراف إسرائيل نفسها على التصدى لحزب الله عام ٢٠٠٦ مما جعل اندحار إسرائيل عام ٢٠٠٦ نكسة للدوافع المصرية.

أما الدليل الخامس: على تورط مصر فى مساندة الهجوم الإسرائيلى على غزة فهو زيارة وزيرة الخارجية الإسرائيلية لمصر وإعلانها عن تفاصيل الحملة الإسرائيلية على غزة وتصريحات وزير الخارجية فى المؤتمر الصحفى مع ليفنى ومع أبو مازن يوم ٢٥ و ٢٨ ديسمبر أى بعد يوم واحد من بدء حملة الإبادة فى غزة حيث حمل الوزير المصرى حماس صراحة مسؤولية الهجوم الإسرائيلى وكأنه يقول أن مَا تقوم به إسرائيل هو جزء عادل بسبب رفض حماس تحذيرات مصر من عدم تجديد الهدنة رغم أن حماس أثارت الكثير من التحفظات على موقف مصر وأهمها أن مصر لم تلتزم بالنزاهة الواجبة فى مسألة الحوار الفلسطينى وأنها انحازت تماماً لأبي مازن، وأن حماس تشعر فعلاً بأن هناك جفاءً من جانب مصر نحوها. وقد استعانت وزارة الخارجية الإسرائيلية بهذه التصريحات وأوردتها على موقعها الإلكترونى باعتبارها مسوغاً للهجوم على غزة وهو نفس الرأى الذى أجمع عليه الكتاب المصريون والعرب.

يضاف إلى ذلك الصور التى ظهر فيها الرئيس مبارك وكذلك وزير الخارجية مع ليفنى خاصة صورة الوزير معها وهو يشد بحرارة على يدها والحبور يقفز من عينيه حيث علق أحد أساتذة الطب النفسى على هذه الصورة بأنها دليل قاطع على ما دار فى الغرف المغلقة خاصة وأن ليفنى جاءت لكى تعلن الحرب من القاهرة على غزة لتكتسب شرعية عربية ضد حماس. يعزز هؤلاء رأيهم بالحملة الصحفية المركزة فى الصحف المصرية والسعودية واستكتاب عدد ممن لا علاقة لهم بالكتابات السياسية لكى يهاجموا حماس وتشويه صورتها أمام الرأى العام تماماً مثلما حدث مع حزب الله

خلال التصدى للعدوان الإسرائيلى بعد أن اعتبره الرئيس مبارك مغامراً مما استندت إليه إسرائيل فى التدليل على أن العالم العربى يريد أن يتخلص من حزب الله وأنها تقوم نيابة عنه بهذه المهمة.

أما الدليل السادس : فهو مساهمة مصر فى الحصار على غزة بإغلاق معبر رفح رغم أن مصر ملتزمة بفتحه وفق اتفاق التهدئة مثلما تلتزم إسرائيل بفتح معابرها هى الأخرى، وقد رفضت الحكومة المصرية جميع محاولات الحملة الشعبية لإنقاذ غزة، فلا هى أنقذتها ولا هى سمحت بإنقاذها فى الوقت الذى بذلت فيه كل جهد لدعم إسرائيل ومدها بالغاز اللازم وحرمان غزة بل وقرى مصرية من هذا الغاز وبأسعار تصل إلى درجة الهدية، والتصدى للقضاء الإدارى المصرى وتحقير شأنه لأنه تجرأ على الحكم بفسخ العقد وإبطال التصرف والتأكيد على اغتصاب الحكومة المصرية لسلطة مجلس الشعب الدستورية وتفضيلها للمصلحة الإسرائيلية على مصالح الشعب المصرى فيما يتعلق بالموارد الطبيعية ورفض دفوع الحكومة بأن تصدير الغاز لإسرائيل يعتبر خدمة للأمن القومى المصرى أو أنه من أعمال السيادة التى لا يجوز للقضاء أن يبسط رقابته عليها. يضاف إلى ذلك شكوى الدول العربية التى أرسلت المعونات إلى غزة عن طريق العريش من بطء إجراءات الموافقة على نقل الشاحنات إلى غزة.

الدليل السابع : هو عرقلة مصر عقد القمة العربية دون تدبر لتداعيات هذه الخطوة ودون أن يكون لهذه الخطوة أى عائد سياسى للعلاقات المصرية التركية حتى أن بعض المعلقين يرون أن مصر استنجدت بتركيا لمداراة التورط المصرى وآثاره وردود فعله المخيفة فى الشارع العربى على مستوى العالم والذى دفع المتظاهرين إلى هتافات وتحرشات للبعثات المصرية.

أما النظرية الثانية : فترى أن ارتباك الأداء المصرى وعدم كفاءته قد دفع إسرائيل إلى الاستخفاف بمصر بناء على دراسة متأنية مضمونة للدور المصرى ورد فعله طوال السنوات الثلاثين الماضية. خلاصة هذه النظرية أن إسرائيل كعادتها قد استغلت السذاجة المصرية التى لا تتفق مع لئام الذئاب الإسرائيلية وصارت كالأيتام على مآدب اللئام. وقد وجد بعض المسؤولين فى الحزب الوطنى فى مصر أن هذه النظرية هى أخف الأضرار وهى أفضل من اتهام مصر بالتواطؤ مع إسرائيل خاصة وأن الحزب الوطنى يستعين بعدد من الأبواق الإعلامية فى الصحف القومية الذين يهاجمون دون دليل ويتهمون دون سند مما جعل صورتهم أمام القراء بالغة السذاجة.

أما النظرية الثالثة : ترى أن مصر هى التى غررت بإسرائيل لكى تقوم بها أسمته مصادر إسرائيلية المهمة القذرة ضد حماس وتحمل المسؤولية الباهظة أمام الضمير والرأى العام، كما أن هذه المهمة تتفق مع استراتيجية إسرائيل فى التخلص من حماس كطرف فى المعادلة حتى يسهل على أبي مازن أن يتفاوض على تسوية نهائية مريحة لإسرائيل. ترى هذه النظرية أيضا أن مصر وبعض الدول العربية قد عانت من الإحراج بسبب تخليها عن المقاومة وانضمامها إلى معسكر السلام الإسرائيلى ولذلك اعتقدت أن تصفية حماس أسهل على يد إسرائيل من الحوار الوطنى الذى كانت مصر قد بدأت الإعداد له وكانت تأمل أن يتم احتواء حماس فى خط أبو مازن فى إطار هذا الحوار لأنه لا يمكن الجمع بين ما يسمى فى الأدب السياسى العربى مؤخراً بخط المقاومة وخط التسوية. ولا شك أن الموقف المصرى قد سمح بتجميد رد الفعل العربى سواء بالعجز أو بالتواطؤ أو بالتوافق أو بالتوازى، كما أعطى إشارة الأمان لإسرائيل لكى تستمر فى تنفيذ مخططها فى غزة خاصة وأن السلطة

الوطنية فى الضفة الغربية تحرص إسرائيل من أى عمليات فدائية إنطلاقاً من الضفة وتعتقل المجاهدين وتحبط عملياتهم وتفخر بذلك.

يترتب على هذا الدور المصرى اختفاء الدور العربى، وإزدياد توحش إسرائيل، ولذلك فإن هناك ثلاثة احتمالات يتطور الموقف المصرى والمشهد فى غزة:

الاحتمال الأول : أن تنجح إسرائيل فى السيطرة على غزة بعد تدميرها وإسقاط سلطة حماس وإنهاء المقاومة ثم تسليمها لقوى دولية بضمانات حتى تعود لسلطة أبو مازن محملة بهذه القوى وضمانات عدم عودة المقاومة إليها. هذا الاحتمال هو ما تريده مصر وبعض الدول العربية حيث يتم فى المرحلة القادمة إنهاء القضية الفلسطينية وإبرام إتفاقية سلام مع أبي مازن ثم فتح الباب أمام بقية الدول العربية لتطبيع علاقاتها مع إسرائيل وبذلك تبدأ إسرائيل المرحلة الثالثة فى تطبيق المشروع الصهيونى، مما سيؤدى إلى صدام حتمى بين مصر وإسرائيل لأن سيناء سوف تكون جزء أساسى من تداعيات هذا المشروع.

الاحتمال الثانى : أن تتمكن حماس من الصمود بأى ثمن مما يؤدى إلى إنكسار الحملة الإسرائيلية وهو ما يؤدى بدوره إلى تأثيرات خطيرة على الحكومة الإسرائيلية والإنتخابات وربما بعض الدول المجاورة لإسرائيل.

الاحتمال الثالث : أن تصمد حماس ولكن يتم التوصل إلى تسوية تعيد الهدنة مرة أخرى بشروط إسرائيلية مما يعد انتصاراً لمعسكر الاعتدال وعودة أخرى إلى جذور الصراع فى الوقت الذى تبدأ فيه جهود إعادة إعمار غزة بأيدى عربية بعد أن يتأكد أن العالم العربى لا يزال حياً ولكن فى مساندة إسرائيل، وتحول وظيفة العالم العربى إلى مساندة أعداءه وتكريس هذه الثقافة من خلال الإعلام العربى.